ملحمة «عبقر»

نظم الشاعر المبين شفيق المعلوف

للأستاذ البدوي الماشم

« إن في عبقر المعلوف (شفيق) روعة الشعر الأبدية، وفيه الخيال والفكر أمثلة قادرة من القوة والجسارة، وفيه من السلاسة والانسجام والاقتصاد باللفظ ما لا تجده في كثير من القصائد المطوّلة والدواوين الضخام » (أمين الريحاني)

وهب الله السلامة المحقق الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف اجمالاً شعراء ثلاثة هم (فوزي) — طيّب الله ثراه — صاحب ملحمة على بساط الريح و (شفيق) واضع ملحمة عبقر و (رياض) — صاحب الاوتار المتقطعة و خيالات وغيرها من الروائع

نشر (شفيق) ملحمة (عبقر) لأول مرة عام ١٩٣٦ في ست أناشيد وبعد أن توفرت لديه المادة الجزلة الخصبة أضاف اليها زيادات جديدة وأضفاها على خزينة الأدب العربي في إثني عشر نشيداً وخرجت للأبدي في اعقاب عام ١٩٤٩ مطبوعة في سان باولو مدينة الأنوال والدواليب والدخان.

وفي هذه الملحمة النفيسة الكبرى مهّد (شفيق) بمقدمة جاءت في خمس وثلاثين صفحة بعد المائة، عالج فيها مباحث أسطورية عن عبادات الجاهلية وخرافات العرب وما شابهها عند الفرس واليونان والرومان والهنود وسواهم من الشعوب التي لها قدم راسخة في دنيا الميثولوجيا.

زعموا أن (عبقر) واد مجهول تقطنه الجنّ وعرفه أبو البقاء في كتاب (الكليات): «كل جليل نفيس فاخر من الرجال والنساء!» وكان العرب يتبرّزون عن كل جميل وسيم بقولهم: «كأنه من جنّ عبقر!» قال الأعشى: «كهولاً وشباناً كجنة عبقر»

وللافرنج — كما روت مجلة (الشرق) الغراء التي يصدرها في سان باولو (البرازيل)

الكاتب العربي النابه الاستاذ موسى كريم طائفة من الأساطير في الشياطين، وأول من صدّقها وتأثر بها الفرس واليونان على ما روى المؤرخ اليوناني (هيرودوت). وكان الشعراء الأقدمون راسخي الاعتقاد بأن لكل شاعر (شيطاناً) يوحي اليه بما يريد قوله ولم يحرم العرب وهم كسائر الامم التي طلعت الشعر، من هذه الخرافات بل ناهيهم من هذه الأساطير رشاش موفور إما لصلتهم بالفرس والرومان، أو لأن المحيط الذي عاشوا فيه كان لانساع رقعته وتراحي أطرافه، ووحشة فيافيه، يدعو إلى تقوية هذه المؤثرات . . . ولقد بلغ من تأثير هذه الأوهام على عقلية العرب انهم كانوا يرون الجن في الأمكنة كافة ويخاطبونهم وجهاً لوجه. وفي رواية الحارث الضبي إنه شاهد جنياً يوقد النار لطعامه فدعاه ذات يوم ليشاركه في أكله فرفض . . . !

فلما جاء العرب على ذكر (عبقر) في كتبهم وأساطيرهم وخلاصة ما زعموه إنها قرية تسكنها الجن. وينسب اليها كل جليل فائق، وفي (عبقر) التي كشفها خيال الشاعر المجدد الاستاذ شفيق تناول العرب وخرافاتهم دون أن يغفل حديث الكاهن (شق) وهو الذي قيل إنه كان ذا يد واحدة . . ورجل واحدة . . وعين واحدة . . ثم الكاهن (سطيح) وكان لحماً بلا عظام يدرج كما يدرج الثوب. وقد ولد و (شق) في يوم واحد، واليك بعض ابيات في تصوير كل من هذين الكاهنين : في صفحة ٢٣٣ وفي صفحة ٢٣٥

سطيح : في هوة الغيلان هل وقفة ... أرهب منها بين غول وجان
يهبط بي الشيطان بينا أنا ... مجرّد الابصار واهي الجنان
أني تلفت بغيطانها ... تحدجني عينان ناريتان
بسحنة فاغرة شدقها ... عن أنيب محددات السنان

شق : والكاهن الآخر ذو خلقة ... لم يحبس الخالق فيها أحد
قد شق من أعلى إلى أسفل ... ولم يزل حيّاً بشطر الجسد
يحمد الله على خلقه ... بشق وجه ورجل ويد

إلى أن يقول الشاعر في صفحة ٢٣٦

يا أحكم الحكام في عالم ... نصبتها الدهر عليه رصد
يا كاهني (عبقر) هل حكة ... أعدها للغد بين المدد ؟
أرسلها فوق رؤوس الورى ... ملشورة على غمام الجلد
يلقفني عوج التقادير أو ... أكتبها بالنار فوق الزبد

ويستهل الشاعر ملحمته الشعرية في طريقه إلى (عبقر) بتصوير البقعة التي تستعود على الشاعر ساعة الوحي ثم يصوّر لنا شيطان شعره بهذه الابيات : صفحة ١٤٨

في فمه من سقر جذوة ضمها يطير الشرر الثائر
ووجهه جمجمة راعني أنيابها والمحجر الغائر
كأنما محجرها كرة يطل منها الزمن الغابر

وما أن ازمع شيطان الشاعر أن يريه البقعة التي جاء منها واصطلح البشر على تسميتها عبقراً إذا به في (البلد المرصود) قرية الجنّ التي يصورها لنا وقد غطتها الظلمات الزرق وانبلج النور على جدران منازلها وملأ عزيف الجنّ بيراجها ووقف الاباليسة حراساً على هذه الابراج وإذا به إمام غرفة عبقر وقد لعت على وسطها ثعباناً وانبعث الدخان من شعرها والشرر من مقلتيها ، وهنا يبث الشاعر رأيه في الناس وفي مدنيتهم على لسانها بقوله : في صفحة ١٦١

ويحك يا انسان
الق عصا سحرك
فعرفت فينا الجان فعذن بالشيطان
من شرك
وددت يا قادر لو انني أطلقت لعباني لا يلتني
عنك فيرديك ، ولكنني
أخشى على الثعبان من غدرك
في نابه السم كان وصار في صدرك
فليس هذا الصل بالافعوان بل أنت يا إنسان
فارجع الى وكرك

ولا تزال (العرّافة) تلقي عليه سخرية بالناس ومدنياتهم حتى يضيق صدره فيطلب الى شيطانه أن يرحل به عن هذه البقعة فيطمئنه طالباً منه أن يصغي الى أميرة الجن التي أوت قبائل الجن بعصيانها وهي ترتل أغنيتها وما كانت هذه الأميرة إلا الشهوة الجامحة الساخطة على عالم الارواح وهنا نستمع للشاعر وهو يصورها لنا أروع صورة في ص ١٧١

جنيّة تمن في وثبها كأن شيئاً حولها راعها
حلتها كالضوء شفافة عن بشرة تزيد اشعاعها
كأنما الشمس التي كوّرت من حلقات النور اضلاعها

القت الى الارض بما أبدعته ليكبر العالم ابداعها

ثم ينتصب روحها أمام الشاعر فيصيح : صفحة ١٧٣

ويحي من يضع فيّ النهم أتلما استلقت على مضجعي
روح فقربت اليها فمي تلمست فلم أقبل ولم
أضم إلاّ عدماً في عدم

وبعد أن تصف عالم الاجساد حيث لا تعدم الشهوة وسيلة لإطفائها تقول متحسرة : في صفحة ١٧٥

فنحن والهفي بنات الظلال لسنا وقد حنا على أرضنا
غير خليط من طيوف ضئال كقطع الغيم .. إذا بعضنا
تعانق اضمحلّ في بعضنا

وتشهي عالم الاجساد وتتفاني في شهوته الى حد التضحية بروحها الخالد : صفحة ١٧٧ و ١٧٨ .

من لي بذي قلب خفوق الحِجا في صدره .. وإن يكن يختلج
لعاصف الموت اختلاج الشعل
يا حامل الجسم ألا أعطنيه وخُذ إذا شئت خلودي ثمن
روحي لا يبلى فمن يرتضيه أجل ما في جسمه من شجن
وشاحي الناريّ من يشتريه فاني أبيعه بالكفن .

وهذا شيطان الحروب الذي يخطط الحدود بين الاوطان بسياج من النيران ثم يبعث الغرور في الصدور فتستعر الحروب وكلما انتهت حرب كلّل رؤوس الغزاة بالشيطان كما يغريهم بإثارة حرب أخرى فأخرى لأن لذته القصوى أن يرى البشر يقتاتون : ص١٩٣

حتى إذا ما الجنود ماتوا فدى الرايات
داس بقايا البنود وطاف بالأموات
فانتزع القيود من أرجل العبيد
ولفها تيجان على رؤوس الغزاة

قالت العرّافة منددة بكبرياء الانسان وأنانيته : صفحة ١٦٣ و ١٦٤

جعلت نفسك أعلى في الأرض من ربك

حسبت عيبك فضلاً فدس على عيبك

*

لا تمض في عجبك فاعا الآلهه
ليست على دربك ما دام حب الذات
يذخر في قلبك !

أما نقائص البشر فلا يملّ الشاعر التنديد بها والدعوة الى التخلص منها ولا يكاد يخلو لفيد من ذكرها والالمام إليها : صفحة ١٩٦ و ١٩٧

فاندثرت الكبرياء تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الآباء غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد بين الورى حزما
وصار الاستبداد في عرفهم عزما

وقال بلسان الكاهن (شق) صفحة ٢٤٣ ، ٢٤٤

هل تنفع اليدان والواحدة تهدم ما تشيده الثانيه
فطقت من نصف لسان وفم فلم يضرني أني نطق بفوت
تالله قد بلوت دهري فلم أصل الى الحكمة لولا السكوت
وإنّ قلباً بعضه يشمر وبعضه كأنه الجلمد
حسبي منه نصفه النيّر لا كان قلب نصفه أسود..

وختم نشيد (شق) بهذا التناقض البديع : صفحة ٢٤٤

سبحان ربي وهو رمز الكمال إني لولا النقص لم أكمل..

ويبدع الشاعر في وصف ثورة البغايا وهن طراز تلك الجنّية الثائرة المتمردة في الصفحات ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ فيقول:

هذي كؤوس الأمس يحملنها وصاجة وليس فيها خمور
هل النهود البيض الصقنها من نتف الغمام فوق الصدور
والنقط الحمراء في وسطها أهي من الفجر بقيّات نور
أم طبع منذ عناق الهوى تؤجّ فيها جمرات الثغور

*

فان دنت من الشفاه الشفاه هزّها هزّاً ونشتفّها

كشارب الخمرة يدنيها منه فكم تزيد من لذته
خفخفة الكاسات في قبضته من قبل أن يمتص ما فيها

٥

لمن لن بطاعة الله وهو الذي في وسط العاصفة
زج بنا بالأضلع الراجفة والجسد المستسلم الواهي

لم نسمع قط أن رجحان كفة الميزان هو هبوط وخسارة ولكن الشاعر يرينا ذلك لأول مرة عندما يحسب شيطان المال ميزانه واحدى كفتيه فيها روح والأخرى مترعة ذهباً فتطير الروح على الذهب : صفحة ٢٠٧

فكفة جوفاء طارفة من ذهب وكفة غاليه
شدت بها الأرواح نحو العلى فرجحت بالذهب الثاليه

وأخيراً هناك صورة حية واضحة يصف فيها الشاعر الموت ويصور لنا حقارة الحياة ـ صفحة ٣١٠

وسرت شوطاً فاذا بي أرى جماجماً ورمماً باليات
كأنما الموت وقد قام عن خرائه خص الثرى بالفتات
فقلت للشيطان هل تخبري ما هو يا شيطان هذا الرفات؟
فقال لي وقد لوى ضاحكاً هذا الذي تلده الأمهات !

أما القتائل والأنصاب التي يقيمها البشر محاولين فيها تخليد موتاهم فإن أرواح الموتى تنبذها وتستصغر شأنها لأنها تجعل من (الأحلام) (أحجاراً) وهذه الأرواح تحمل الشاعر سفارة هامة وهي إبلاغ الناس أمنيتها : صفحة ٣١٨

قل للألى يقرع صدر اللحود أو ميل حفارهم
أرواحنا تبغي قباب الخلود بغير أحجارهم

٥

هذه لمحة عاجلة تناولت فيها ملحمة (عبقر) للشاعر الموهوب شفيق معلوف ولولا ضيق هذه الصفحات عن الأسهاب والإطالة لاستعرضت أناشيدها واحداً واحداً ولكن فاتني هذا التفصيل في المقتطف ، فلن يفوتني في كتابي القادم (الناطقون بالضاد في اميركا اللاتينية) . والديوان من منشورات العصبة الأندلسية بسان باولو بالبرازيل ومطبوع طبعاً متقناً على ورق فاخر مار — انظر الاردنية الهاشمية